المحور الرابع: إشكالات مرتبطة بالقضاء والقدر

1- مفهوم الهداية: يرى بعض الناس أن هناك تعارض بين قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾الشورى، وبين قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ... ۝٥٦﴾ القصص، حيث الآية الأولى تثبت الهداية للنبي ﷺ، والثانية تنفيها عنه.

وبالاستقراء استنبط العلماء أن الهداية نوعان هداية إرشاد وتوجيه، فهذه مكلف بها الأنبياء ومن تبعهم، والأخرى هداية توفيق وهي من الله عز وجل وحده، فلا شيء يخرج عن إرادته.

فمن اختار طريق الرشاد وفقه الله إليه ويسره له، ومن اختار طريق الضلال وأصر عليه بعد إرشاد الأنبياء وتوجيههم ونصح العلماء ودعوتهم له إلى طريق الخير، يسر الله له الطريق الذي اختاره.

وهذا مفهوم الآيات التي جاءت في هذا السياق ، كقوله تعالى:﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ۝٨٨﴾النساء:

وقوله عز وجل:﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾ الروم:٩٢

فالله عز وجل هو العدل الحكم، لا يظلم أحدا، من اختار طريق الضلال وأصر عليه ييسره له لأنه اختياره لا يكرهه على شيء، يقول الشيخ الشعراوي في تفسير ذلك:"ما دام هؤلاء قد اتبعوا أهواءهم المتفرقة وأخذوها بدون أصولها من العلم، فسوف أُكمل لهم ما أرادوا وأُعينهم على ما أحبوا، فقد ألغوا عقولهم وعطلوها وعشقوا الكفر بعدما سقنا لهم الأدلة والبراهين، إذن لم يبق إلا أن أعينكم على ما تعتقدون وأن أساعدكم عليه، فأختم على قلوبكم فلا يدخلها إيمان ولا يفارقها كفر.

وهكذا يضل الله هؤلاء، بمعنى يعينهم على ما هم عليه من الضلال، فلا شيء يخرج عن إرادة الله" وذلك لأن الله تعالى أعطى للإنسان حرية الاختيار بين طريق الخير وطريق الشر، فما اختاره يسره عليه. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾ البلد: ٠١

فالثواب والعقاب متعلق بدائرة اختيار الإنسان، وعلم الله تعالى سابق وليس سائق، فمسألة الضلال هي من دائرة الاختيار، ومسألة الإضلال هي من باب علم الله السابق بالاختيار، وليس علمه سبحانه بسائق .

2- إذا كان كل شيء قد قُدِّر ففيما العمل؟

قد يرد على الإنسان سؤال مفاده: ما دام كل شيء قد كتب منذ الأزل حتى أعمال الإنسان فما الفائدة من العمل؟ وقد وقع هذا السؤال فعلا، سأله الصحابة لرسول الله ﷺ، فقد جاء عن علي رضي الله عنه قوله: " : كان النبي ﷺ في جنازة ، فأخذ شيئا فجعل ينكت به الأرض ، فقال : " ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة " قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ، وندع العمل ؟ قال : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة " ، ثم قرأ : فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى الآية"[1]

قال البخاري: ميسر أي مهيأ، وفي رواية أخرى له ولمسلم: " أفلا نتكل ؟ قال : " " لا ، اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له " " ثم قرأ : فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، إلى قوله فسنيسره للعسرى.

فجملة (كل ميسر لما خلق له) ربطها النبي ﷺ بقوله تعالى :(فأما من أعطى واتقى...) لنفهم أن التيسير والتوفيق مرتبط بما اختاره الإنسان من الطريقين، طريق الخير أو طريق الشر.

إذ لا بد أن نفهم التيسير على حقيقته، فليس معناه الإكراه، فأنت لا تعلم بواطن الأمور ولست مكلفا بها، أنت مكلف بالظواهر، فاجتهد وابذل كل الأسباب، لأن اتخاذ الأسباب من الشرع، في حين النتائج من القدر، فنحن مكلفون ببذل الأسباب ولسنا مكلفون بالنتائج. فالإنسان لا يدري ما كتب له. ولكنه مأمور بالعمل.

3- علاقة اتخاذ الأسباب بالقدر

السبب لا يخلق المسبب، فالخالق واحد هو الله عز وجل، ولكن السبب يفعل ، فالنار سبب الاحتراق إذ هي فعلت الاحتراق والله هو الخالق لذلك الفعل. ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾

فنحن مأمورون باتخاذ الأسباب ولسنا مأمورون بالنتائج، يقول الله تعالى: ﴿ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ ﴾ الغاشية: ٢، هذا اتخاذ للأسباب لهداية الناس، وقوله عز وجل: ﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ﴾ من النتائج، التي هي من الله.

والأسباب قسمان : أسباب شرعية في دائرة اختيار الإنسان، وأسباب كونية تخرج عن إرادته.

---

[1]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة ، باب فسنيسره للعسرى، حديث:4670. وفي غيره ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله - حديث:4894

فالأسباب الشرعية إذا أعملها الإنسان لا بد أن يصل إلى نتيجة ، وهي من القدر، فقد جاء في حديث الوباء، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، خرج إلى الشأم ، حتى إذا كان بِسَرْغَ لقيه أمراء الأجناد ، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم . قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ، ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادعوا لي الأنصار ، فدعوتهم فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم ، فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه . قال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارًا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف - وكان متغيبا في بعض حاجته - فقال : إن عندي في هذا علما ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه " قال : فحمد الله عمر ثم انصرف)[2]

فقول عمر رضي الله عنه: (نفر من قدر الله إلى قدر الله) دليل على وجوب اتخاذ الأسباب وهي من قدر الله.

أما النتائج فليس للإنسان فيها دخل، فهي من الله ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ .. ﴿٢٧٢﴾ ﴾ال بقرة: ٢٧٢

ولهذا نحن مكلفون باتخاذ الأسباب امتثالا، لا اعتمادا عليها لأن ذلك من الشرك. فالتوكل على الأسباب شرك بالله وتركها كلية معصية، ذلك أن الإنسان إذا كان يعتمد على الأسباب فلن يحمد الله على نعمة، لأنه يظن أنه هو الذي وصل إلى تلك النتيجة باجتهاده مثل قارون: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ال قص:

فالنجاح ليس نتيجة حتمية لاتخاذ الأسباب بل بتوفيق من الله تعالى. ودليل ذلك أن أحيانا الإنسان يتخذ كل الأسباب ولا تأتي النتائج وفق هواه، فالمؤمن يسلم بأمر الله في حين الكافر

---

[2]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون - حديث:5405، ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها - حديث:4210، واللفظ للبخاري.

يصاب بخيبة وإحباط لأنه معتمد على الأسباب فقط. وهذا ما نبهنا إليه القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحديد: ٢٢ - ٢٣

ولكن لا بد من اتخاذ جميع الأسباب المتاحة وفق الشرع والنتائج ليس محاسبا عليها، فهي من عند الله من محض القدر (الأسباب الكونية).

ومن الأمثلة الاعتماد على الأسباب أحداث غزوة حنين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ التوبة: ٢٥

أما النتائج فهي من المشيئة، ما أراده الله كان وما لم يرده لم يكن لحكمة يعلمها هو سبحانه، ومقياس النجاح هو الموافقة لأمر الله، فمن اتخذ جميع الأسباب الشرعية المتاحة ثم جاءت النتائج وفق ما أراد فليحمد الله على توفيقه، وإذا جاءت النتائج على غير مراده فليرض بمشيئة الله ولا يحزن لأنه أدى ما عليه من اتخاذ الأسباب .

ولنا في قصة نوح عليه السلام عبرة وعظة، فهو عليه السلام مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما واتخذ كل الأسباب التي أمره الله بها، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا القليل، فهو بمقياس البشر لم ينجح في مهمته، ولكن بمقياس الله عز وجل قد أدى المهمة كاملة، لأنه ليس مكلف بالنتائج قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الغاشية: ١٢ - ٢٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ العنكبوت: ٤١

وقال: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ هود: ٠٤

فعلاقة الأسباب بالقدر لها وجهان:

الوجه الأول:

من لا يتخذ الأسباب معولا على القدر، ويحسب نفسه متوكلا، وهذا ليس من التوكل بل من التواكل المذموم، لأن اتخاذ الأسباب نحن مأمورون به شرعا، جاء في الحديث، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى)[3]

[3]- أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب قول الله تعالى : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى - حديث:1461، وأبو داود في كتاب المناسكن باب التزود في الحج - حديث:1483.

وجاء في شرحه: " فيه: ابْن عَبَّاس، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى (. قال المهلب: فيه من الفقه أن ترك سؤال الناس من التقوى؛ ألا ترى أن الله مدح قومًا فقال: (لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) [البقرة: 273] ، وكذلك معنى قوله تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) [البقرة: 197] أى تزودوا فلا تؤذوا الناس بسؤالكم إياهم، واتقوا الإثم فى أذاهم بذلك. وفيه: أن التوكل لا يكون مع السؤال.."[4]

وقال ابن رجب في شرحه: " وَهَذَا كُلُّهُ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ لَا يُنَافِي الْإِتْيَانَ بِالْأَسْبَابِ بَلْ قَدْ يَكُونُ جَمْعُهُمَا أَفْضَلَ. قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنُ قُرَّةَ: لَقِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قَالَ: بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَأَكِّلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.."[5]. فعلى الإنسان أن يتخذ الأسباب التي في مقدوره وأتاحها له الشرع، ثم ينتظر النتائج من الله عز وجل.

ويؤيد هذا المعنى حديث أخر للنبي ﷺ يشجع فيه على اتخاذ الأسباب ويعتبر ذلك قوة وترك الأسباب ضعف، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء ، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[6] فحثنا على الحرص على أهدافنا والمضي بجد في تحقيقها مستمدين العون من الله عز وجل، والتخلي عن العجز والاستكانة وضعف العزيمة والإرادة.

<u>الوجه الثاني:</u> من يعتمد كلية على الأسباب وينسى قدر الله وقدرته ومشيئته، فهذا من الشرك، ويسمى شرك الأسباب.

فإذا جاءت النتائج وفق ما يشتهي اغتر بنفسه وقال﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾ ال قصص:

وهذا يرد عليه بقوله ﷺ : (لن يُدخِل أحدًا عملُه الجنة " قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : " لا ، ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت : إما

---

[4]- شرح صحيح البخارى لابن بطال (4/ 192)

[5]- جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (2/ 507)

[6]- أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله - حديث:4923، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب التوكل واليقين - حديث:4166

محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)[7] فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة ولكن من الشرك الاعتماد عليه لأن العمل الصالح لم يقع إلا بتوفيق من الله تعالى، فالاعتماد عليه وترك المسبب الذي هو الله تعالى نوع من الشرك، ثم يبين النبي ﷺ أثر الاعتماد على الأسباب فيتحدث عن اليأس من الحياة حال الفشل فيتمنى صاحبه الموت، فنهى عن ذلك.

شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص: 297)

معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " هو نظير قوله - صلى الله عليه وسلم -: "لا يدخل الجنة أحد بعمله" قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته" .والأمر بالعمل مع النهي عن الاتكال دليل لما قاله المحققون من أنه لا ينجو أحد إلا برحمته تعالى وما أحسن ما قاله ابن القيم (.في حادي الأرواح: ومما يجب التنبيه عليه هو أن الجنة إنما تدخل برحمة الله ليس عمل العبد مستقلاً بدخولها وإن كان سببًا وقد أثبت تعالى دخولها بالأعمال في قوله: {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32] ونفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخولها بالأعمال في قوله: "لن يدخل أحد منكم بعمله الجنة" ولا تنافي بين الأمرين لوجهين: أحدهما: ما قاله سفيان وغيره كانوا يقولون النجاة من النار بعفو الله ودخول الجنة برحمته وانقسام المنازل والدرجات بالأعمال"[8]

وهذا النوع إذا جاءت النتائج عكس ما يشتهي أصابه اليأس والقنوط وقد يكفر، وفي هذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ الحديد: -

فبينهما المولى عز وجل أن كل شيء بقدر مكتوب محسوم فلا داع للحزن والأسى أو الاغترار بالأسباب.

<u>وخلاصة القول في علاقة اتخاذ الأسباب بالقدر</u>: " أن الله وضع خطة للكون (هي القدر) وأنت جزء من هذه الخطة، فأنت مأمور بتنفيذ ما أنت مكلف به، وما هو خارج تكليفك لست مطالبا به ولا يعنيك معرفته، ولست مكلف بمعرفته.

كما أنك لست مطالبا بالنتائج، لأن النتائج تأتي من مجموع الخطة. فأنت إذا أديت ما أمرت به من الجزء المكلف به في الخطة واتخذت كل الأسباب التي تؤدي بها مهمتك. فقد قمت بما عليك ولست محاسبا على النتائج."[9]

<u>4- ظاهر التعارض بين نصوص المثبت الذي جفت به الأقلام وبين نصوص نصت على تغير القدر:</u>

7- متفق عليه، أخرجه كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت - حديث:5357، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى - حديث:5148، واللفظ للبخاري.

8- التنوير شرح الجامع الصغير، الأمير الصنعاني، (2/ 517)

9- هذه الفكرة استفدتها من محاضرة للشيخ محمد الحسن ولد الددو على اليوتوب.

من نصوص المثبت حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما ، فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[10]

ومن الأحاديث التي تنص على تغير القدر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال : من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه.)[11]

وكذا حديث : (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر)[12]

وجواب ذلك أنه لا تعارض لأن القدر كما سبق مراتب، فالكتابة السابقة التي عند الله في الصحف وهي أم الكتاب لا محو فيها ولا تبديل قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩ ﴾ الرعد:

فهذا المحو والتثبيت لا يشمل أم الكتاب، وليست مشروطة بشروط.

لكن بالنسبة للكتابة في اللوح المحفوظ الذي يطلع الملائكة المصرفة، أي المدبرة لشؤون الكون ما كتب فيه مشروط بالشروط وانتفاء الموانع.

والذي يكتبه الملك مع الجنين مشروط بشروط وبانتفاء الموانع، فيكتب: إذا وصل رحمه زيد في عمره كذا، وإذا تصدق زيد في رزقه كذا، فالملك لا يعلم هل يتصدق أم لا ، والله عالم بالنتيجة.

فعندنا قدر في أم الكتاب استأثر به الله عز وجل في علم الغيب عنده لا يتغير، وقدر ينزل من وقت لآخر عند الملائكة في كل عام وكل زمن، فهذا مشروط بشروط وبانتفاء الموانع، فهذا يحدث فيه التغيير والتبديل ، فقد يكتب في اللوح المحفوظ على غير ما في أم الكتاب ثم يبدل ويتغير ويرجع إلى ما كان عليه.

وكذلك أمر الدعاء، فلما يدعو الإنسان، يرى الله (وهو العليم بذلك منذ الأزل) إن كان هذا الدعاء (وهو قدر من المرتبة الثالثة، أي توزيع الأشياء على الأزمنة، وهو مما مكتوب في اللوح المحفوظ مما اطلع عليه الملائكة) موافق لما هو في أم الكتاب مما لا تبديل فيه ولا تغيير، استجاب دعاءه.

---

[10]- أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه - باب،حديث:2500 وقال حديث حسن صحيح.، وأحمد في مسنده، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب - حديث:2592

[11]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق - حديث:1976، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب

باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها - حديث:4745.

[12]- أخرجه الترمذي في أبواب القدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، حديث:2116، وقال حديث حسن غريب، وحسنه الألباني.، والطحاوي في مشكل الآثار باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه، حديث:2605.

وإن كان مخالفا لأم الكتاب أثبت البلاء وعوضه عنه بادخاره له في الآخرة أو صرف عنه بذلك الدعاء شرا كان سيقع فيه، وهذا تصديق ما جاء في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال : (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : إذا نكثر ، قال : الله أكثر)[13] وفي رواية أخرى للترمذي: (فإما أن يعجل في الدنيا ، وإما أن يدخر له في الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا)

قال ابن تيمية: "الدعاء سبب يقضي الله به ما علم الله أنه سيكون بهذا السبب كما يقضي بسائر الأسباب ما علم أنه سيكون."[14].

- وقد يبدو تعارض بين حديث (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء)[15]

وبين حديث: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه كتابه ، فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة)[16]

فيمكن الجمع بينهما إذا فهمنا المقصود من كل حديث، فمعنى الحديث الأول أن الإنسان من الأول يولد على الفطرة التي فطر عليها كل الناس، ثم يفسد الناس تلك الفطرة بالمعاصي[17].

في حين الحديث الثاني يتحدث عن المآل، أي ما يؤول إليه الإنسان بما كسبه من أعمال، في حين يولد على الفطرة السوية حتى يصير مكلفا فيبدأ الحساب.

وبمعنى أوضح الحديث الأول يتحدث عن البداية والثاني يتحدث عن النهاية في حياة كل إنسان.

وفي شرح ذلك يقول الإمام الخطابي : " قلت: وفيه وجه ثالث وهو أن يكون معناه أن كل مولود من البشر إنما يولد في مبدأ الخلقة وأصل الجبلة على الفطرة السليمة والطبع المتهيء لقبول الدين فلو

---

[13]- أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب، حديث:3615، وقال: حديث حسن صحيح غريب. وأحمد في مسنده ومن مسند بني هاشم، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه - حديث:14615 وقال الألباني: حسن.

[14]- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، 366/14.

[15]- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين - حديث:1330، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار - حديث:4910، واللفظ للبخاري.

[16]- متفق عليه أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة - حديث:3051، ومسلم في - كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله - حديث:4888.

[17]- مفسدات الفطرة ثلاثة: التكبر، العناد والتقليد

ترك عليها وخلى وسومها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها، لأن هذا الدين موجود حسنه في العقل يسره في النفوس وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره ويؤثر عليه لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سلم المولود من تلك الآفات لم يعتقد غيره ولم يختر عليه ما سواه، ثم يمثل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لأبائهم والميل إلى أديانهم فيزولون بذلك عن الفطرة السليمة وعن المحجة المستقيمة." [18]

5- إشكال احتجاج آدم عليه السلام بالقدر:

ووقع إشكال في حديث احتجاج آدم عليه السلام بالقدر، حيث فهم بعض الناس أنه احتج على معصيته بالأكل من الشجرة بالقدر[19]، وأن ذلك مقدر عليه، حيث جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى " ثلاثا)

ودفع هذا الإشكال يكون بفهم معنى الحديث من خلال سياقه، فآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر على أكله من الشجرة وإنما على خروجه من الجنة، فلم يحتج بالقدر في المعايب وإنما احتج به في المصائب، وهو أنه حلت به مصيبة الخروج من الجنة، وهذه هي التي لامه عليها موسى عليه السلام. فآدم عليه السلام احتج على ما لا اختيار له فيه وهو القدر الكوني ولم يحتج على ما هو في دائرة اختياره وهي أعماله.

حيث لم نجد موسى عليه السلام يلومه على المعصية بالأكل من الشجرة، وإنما قال له خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فلامه على مصيبة الخروج من الجنة، والخروج من الجنة أمر كان قد قدّره الله قبل ميلاد آدم عليه السلام؛ ولهذا يتسلى آدم عن هذه المصيبة بكونها قدر من الله. ولأنه لا يجوز أن يلومه على أمر قد تاب منه وتاب الله عليه. ولكن الذي بقي هو المصيبة التي حلت به على أثر الذنب، فإنه يزيل انكسار نفسه بذلك العزاء.

فالإنسان إذا أذنب ولم تصبه مصيبة دنيوية فلا يجوز له أن يحتج بالقدر في هذه الحالة بل يلوم نفسه، أما إذا أذنب وأصابته مصيبة أثر ذلك الذنب فله بعد أن يتوب أن يعزي نفسه بكون تلك المصيبة قدر.

فمن سرق وقطعت يده عليه التوبة من ذنبه وفي الوقت نفسه يعزي نفسه أن القطع هو من القدر المحتوم الذي لا مفر منه، حتى تسكن نفسه ولا يجزع.

18- معالم السنن في شرح سنن أبي داود ، أبو سليمان الخطابي، (4/ 327)

19- متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله - حديث:6251، وفي غيره ومسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام - حديث:4900.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩ ﴾ال نساء: ، ففضل الله يأتي من غير سبب أما عقوبته فهي نتيجة لسبب وهي أفعال الإنسان، فالشر لا يأتي ابتداء، فالشر ليس إليه سبحانه، وما كان ابتلاء فليس بشر بل لحكمة يعلمها.

قال ابن حجر: " قَالَ الدَّاوُدِيُّ فِيمَا نَقله بن التِّينِ إِنَّمَا قَامَتْ حُجَّةُ آدَمَ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لِيَجْعَلَهُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَلَمْ يَحْتَجَّ آدَم فِي أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ بِسَابِقِ الْعِلْمِ لِأَنَّهُ كَانَ عَنِ اخْتِيَارٍ مِنْهُ وَإِنَّمَا احْتَجَّ بِالْقَدَرِ لِخُرُوجِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ ذَلِك."[20]

فلا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعايب وهذا ما جاء في الآيات:

قَالَ تَعَالَى:﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ ١٤٨ ﴾الأن عام

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ ﴾ ال نحل

نقول في الأخير أعمالنا سواء كانت صالحة أو سيئة هي من القدر الداخل تحت إرادتنا واختيارنا، في حين المصائب والبلايا هي من القدر الكوني الذي يخرج عن إرادة الإنسان.

6- ليس من الأفضل دعاء الله فيما ليس فيه عمل

استشكل على البعض دعاء أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها لأهلها بطول العمر وصرف النبي ﷺ لها عن ذلك، وهذا نص الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية قال : فقال النبي ﷺ : " قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئا قبل حله ، أو يؤخر شيئا عن حله ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار ، أو عذاب في القبر ، كان خيرا وأفضل.)[21]

الدعاء بطول العمر ليس تعبدا مطلوبا، ولأن دخول الجنة والنار مترتب على الأعمال عكس الأعمار والآجال والأرزاق ليست مترتبة على الأعمال، وأجاب عن ذلك أبو العباس القرطبي، حيث قال: "وقد أورد بعض علمائنا على هذا سؤالا، فقال: ما معنى صرفه لها عن الدعاء بطول الأجل وحضّه لها على

20- فتح الباري، ابن حجر، 519/11.

21- أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما - حديث:4921، وأحمد في مسنده مسند عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه - حديث:3593. واللفظ لمسلم.

العياذ من عذاب القبر، وكل ذلك مقدر لا يدفعه أحد ولا يرده سبب؟ فالجواب: أنه ﷺ لم ينهها عن الأول، وإنما أرشدها إلى ما هو الأولى والأفضل، كما نص عليه، ووجهه أن الثاني أولى وأفضل لأنه قيام بعبادة الاستعاذة من عذاب النار والقبر. فإنه قد تعبدنا بها في غير ما حديث ولم يتعبدنا بشيء من القسم الذي دعت به، فافترقا."[22]

المحور الخامس: ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر:

1- التسليم لأمر الله تعالى فيما هو مستقبل وغيب، قَالَ تَعَالَى:﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١ ﴾ التوبة: ١٥

2- عدم اليأس والقنوط فيما وقع من المصائب ومضى، قَالَ تَعَالَى:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ۝٢٣ ﴾ الحديد: ٢٢ ، ٢٣
والرضا بأمر الله والإذعان والامتثال لقدره، ويستفاد ذلك أيضا من حديث: (وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل).

3- والتدبر في حكمته وعدله ورحمته، ويستفاد ذلك من تجربة الإنسان نفسه، وكذا من النماذج التي قصها علينا القرآن الكريم وجاءت بها السنة الثابتة، ومثاله الاستفادة من قصة أيوب عليه السلام في ابتلائه بالمرض وما تبعه من فقد ماله وأهله، وكيف صبر ورضي حتى جاءه الفرج، وكذلك قصة يونس عليه السلام وكذا قصة يوسف عليه السلام، كلها دروس وعبر في الرضا بالقدر والتسليم لله. ويلخص هذه الثمرة حديث

4- عدم الاغترار بما وقع من الموافقات، والزهو والإعجاب بالنفس من أي نجاح، لأن كل ذلك هو بتوفيق من الله وحده،﴿ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

5- تحرير العقل والقلب من الخوف والطمع في غير الله تعالى، وهذا مستفاد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومن غيره، فالمسلم لما يعلم أن كل أموره من رزق وأجل وخير وشر هي بيد الله تعالى وحده يطمئن قلبه وعقله ولا يخشى شيئا بعد ذلك. (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

[22]- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، 6/681.

6- الاجتهاد في العمل وعدم التواني والتكاسل اعتمادا على القدر، فكل ميسر لما خلق له، وكذا التوسط بين عالم الشهادة وعالم الغيب، باتخاذ كل الأسباب الشرعية المتاحة ثم التوكل على الله والاستعانة به، ولذا جاء في الحديث الحث على العمل فيما خفي من القدر وهو المستقبل، والرضا فيما مضى منه. (المؤمن القوي ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء ، فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[23]

يقول صاحب المفهم: "أي استعمل الحرص والاجتهاد في تحصيل ما تنتفع به في أمر دينك ودنياك التي تستعين بها على صيانة دينك وصيانة عيالك ومكارم أخلاقك، ولا تفرط في طلب ذلك ولا تتعاجز عنه متكلا على القدر، فتنسب للتقصير وتلام على التفريط شرعا وعادة.

ومع إنهاء الاجتهاد نهايته وإبلاغ الحرص غايته فلا بد من الاستعانة بالله والتوكل عليه والالتجاء في كل الأمور إليه؛ فمن سلك هذين الطريقين حصل على خيري الدارين، وقوله (وإن أصابك شيء..) يعني إن الذي يتعين بعد وقوع المقدور التسليم لأمر الله والرضا بما قدّره الله تعالى، والإعراض عن الالتفات لما مضى وفات."[24]

---

[23]- أخرجه مسلم كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله - حديث:4923، وابن ماجه كتاب الزهد

باب التوكل واليقين - حديث:4166، وأحمد في مسنده مسند أبي هريرة رضي الله عنه - حديث:8611.

[24]- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، 682/6 و683.